أدب الأطفال والحكاية الشعبية[*]

تشكل الحكايات والقصص الشعبية مصدراً مهمّاً من مصادر أدب الأطفال، ومجالاً خصباً وواسعاً يعتمد عليه أدباء الأطفال في كتابة العديد من القصص والحكايات التي يقرؤها الصغار في الكتب أو المجلات، أو يسمعونها في الإذاعة المسموعة، أو يشاهدونها في الإذاعة المرئية.

والحكاية الشعبية بشكل عام هي «الخبر الذي يتصل بحدث قديم ينتقل عن طريق الرواية الشفوية عن جيل لآخر، أو هي خلق حُرٌّ للخيال الشعبي ينسجه حول حوادث مهمة وشخوص ومواقع تاريخية»[1] وقد تكون الحكاية الشعبية عند بعض الباحثين والدارسين «القصة التي ينسجها الخيال الشعبي حول حدث تاريخي، أو بطل يشارك في صنع التاريخ لشعب من الشعوب، يستمتع الشعب بروايتها والاستماع إليها، ويورثها للأبناء والأحفاد»[2].

والحكاية الشعبية في أساسها نوع من القصص الشعبي الذي ليس له مؤلف معين؛ لأنه يعد محصلة لألوان مختلفة ومتعددة من الروايات الشفوية التي يضيف إليها الرواة أشياء كثيرة، أو يقومون بتحويرها، أو الحذف منها، أو ما يراه الراوي مناسباً لمن يقوم بسرد الحكاية لهم من فئات المجتمع المختلفة، أطفالاً أو شباباً أو كباراً.

والحكاية الشعبية ذات تاريخ طويل موغل في القدم ولعلها الأثر الأدبي الوحيد الذي التقت عليه الطبقات ومراحل التطور؛ والعمر ذلك «لأنها تمثل لقاء الماضي بالحاضر، لقاء الكبار بالصغار، لقاء الشرق بالغرب»[3] والحكاية الشعبية مثلها مثل الأغاني الشعبية والملاحم وغيرها، تعدُّ جزءاً من التراث الشعبي أو

(❖) نشرت بمجلة تراث الشعب. س10، ع4، 1990.

(1) نبيلة إبراهيم. أشكال التعبير في الأدب الشعبي. ط3، القاهرة: دار المعارف، 1981، ص133.

(2) علي الحديدي. الأدب وبناء الإنسان. طرابلس: منشورات الجامعة الليبية، 1973، ص172.

(3) عبد الحميد يونس. دفاع عن الفولكور، القاهرة: الهيئة المصرية العامة للكتاب، 1973، ص98.

الحكم أو الفنون التي تراكمت وتجمعت عبر العصور من خلال الممارسات اليومية للشعوب. وعلى الرغم من تنوعات الأدب الشعبي، فإن الحكاية الشعبية أشهر أنواعه وأحبها لدى المستمعين لهذا الأدب أو القارئين له بعد أن أصبح مكتوباً.

وعندما بدأ الاهتمام بالحكايات الشعبية في القرن الثامن عشر وما بعده، وأصبح لها منهج مميز لجمعها ودراستها ومتابعة تطورها التاريخي، والكشف عن أصولها، اختلفت آراء الباحثين والدارسين لعلم التراث الشعبي أو المأثورات الشعبية في أصل الحكاية الشعبية. وقد ظهرت عدة نظريات عن مصدر أو موطن الحكاية الشعبية الأصلي، ومن خلال جمع الحكايات الشعبية خاصة في القرن التاسع عشر، الذي يعتبر عصر الاهتمام الرومانسي بالحكاية الشعبية القديمة، تمت ملاحظة تشابه قوي في الحكاية الشعبية التي وجدت في أقاليم متنوعة من الكرة الأرضية، وتبع ذلك ظهور تفسيرات مختلفة لهذا التشابه وأصل الحكاية الشعبية(1)، وأشارت الدراسات المتعددة للحكاية الشعبية أنه مهما اختلف المفسرون والعلماء حول الموطن الأصلي الذي بدأت منه الحكاية الشعبية، فإنها تعتبر «بمضامينها ومحاورها خطاً مشتركاً بين الشعوب على اختلاف لغاتها ومراحل حضارتها»(2).

والتراث الشعبي بشكل عام، والحكاية الشعبية بشكل خاص، يشكل دعامة كبرى وأساسية لأدب الأطفال عند جميع الأمم وبجميع اللغات، وعلى اختلاف المراحل الحضارية، وعلى اختلاف البيئات التي عاش فيها الإنسان. وللحكاية الشعبية دور كبير في تثقيف الطفل ماضياً وحاضراً ومستقبلاً أيضاً، وبذلك تكون الحكاية الشعبية ـ والتراث الشعبي عموماً ـ جزءاً أساسياً من ثقافة المواطن الصغير وثقافة الشعب بكامله بشكل عام(3).

---

(1) Zena Sutherland and May Hill Arbuthnot. Children and Books. 5th.ed. Glenview, Illinois: Scott Foresman and Company, 1977, p.31.

(2) عبد الحميد يونس، ص98.

(3) المصدر نفسه، ص101.

ولأن التراث الشعبي يعد نتاجاً للممارسات اليومية لأفراد المجتمع، كما ذكرنا، فقد أطلق على علم التراث الشعبي «المأثورات الشعبية» ـ الفولكور ـ اسم «مرآة الشعوب»(❖).

وقد عرف الأطفال ضروباً كثيرة من الحكايات الشعبية على مر العصور من خلال سرد الحكاية الشعبية بواسطة الرواة، سواء كانوا من الرواة المتجولين في المناطق والأحياء والقرى والأرياف، أم من المستقرين في أماكن معينة ويسردون الحكايات والقصص الشعبية في أوقات معلومة، قبل أن يخترع الإنسان الطباعة، ويقوم بجمع الحكايات وطبعها في كتب ونشرها بعشرات الآلاف من النسخ، يقرؤها الأطفال والكبار أيضاً في أحيان كثيرة، فكانت بذلك من أول أنواع الأدب الذي عرفه الأطفال، كما كانت ـ أيضاً ـ جزءاً من تراث الأمة الذي يستمتع به الكبار استمتاعاً كبيراً، وكانت جزءاً لا يتجزأ من ثقافة المجتمع كله. وتاريخ الحكايات الشعبية حافل بالعديد من الأمثلة الدالة على ذلك.

ويختلف مضمون الحكاية الشعبية وما تحمله من أفكار وثقافات، لذلك يرى بعض المختصين في أدب الأطفال أن من بين الحكايات الشعبية ما يمكن أن يصلح للأطفال، ومنه ما ينبغي إبعاده عنهم؛ لما يحمله من أضرار، ومنه ما يمكن إعادة كتابته في مضمون وشكل قشيب»[1].

وحين بدأ جمع الحكايات الشعبية في العديد من بلدان العالم، وجد المتخصصون أن هناك كماً كبيراً من هذه الحكايات يجب ألا يقدم للأطفال، وأن جزءاً يسيراً يمكن أن يكون مادة جيدة لتثقيف الطفل، وأن الجزء الكبير كان يحمل أفكاراً ومضامين فيها قسوة وخشونة، لذلك تلت حركة تدوين الحكايات الشعبية، حركة إعادة كتابة أو تحوير لعدد كبير من الحكايات بهدف تقديمها للأطفال، وتم

(❖) بل هو حقيقة: «حكمة الشعوب» كما تعني الترجمة الحرفية للمصطلح «فولكلور» (Folklore). المحرر.

(1) هادي نعمان الهيتي. ثقافة الأطفال. الكويت: المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، 1988، ص186. (سلسلة عالم المعرفة رقم 123).

obeikandi.com

تطوير بعض الحكايات الأخرى التي كان الكبار يتناقلونها، حتى تصبح هي الأخرى في مستوى تقديمها للأطفال في شكل مناسب وبأسلوب مناسب أيضاً[1].

ومما يجعل الحكايات والقصص الشعبية محبوبة من قبل الأطفال والكبار، أنها، إلى جانب سهولة تذكر أحداثها وانتقالها من جيل إلى جيل، فإن أفكارها على قدر كبير من البساطة والوضوح، مما يجعلها مشوقة للأطفال والكبار على السواء، حتى إنها ظلت ومازالت، ذات متعة كبيرة لا حد لها للصغار في جميع أنحاء العالم، على الرغم من بعض التغييرات التي قد تحدث نتيجة الترجمة والتفسير من أمة إلى أمة أو من لغة إلى أخرى، ثم إنها كذلك تترك للطفل حرية تصور الموقف كما هو معروض، مع وجود أقل قدر ممكن من المسؤولية، وربط كل ما يحدث في الحكاية بواقع الحياة اليومية[2].

وعندما بدأ الوعي بأهمية أدب الطفولة ودوره في بناء شخصية الطفل ومستقبل المجتمع خلال القرنين الثامن عشر والتاسع عشر، اتجه عدد من الأدباء المشهورين والكتاب وذوي المكانة العالية في عالم الأدب إلى تراث الشعب، خاصة الحكايات الشعبية، ليستمدوا منها موضوعات زاخرة بأفكار ومضامين حري بتقديمها للطفل، ليجد فيها متعة وتسلية وتربية وتقديراً لقيم اجتماعية يجب المحافظة عليها، وغيرها من أنواع الثقافة الأخرى التي يكون الطفل في حاجة إليها لتنمية شخصيته، وقد قام العلماء والأدباء بكتابة الحكايات الشعبية للأمة بلغتها القومية ملتقطة من أفواه العجائز والرواة الذين كانوا يسردونها على مسامع الصغار والكبار في أماكن مختلفة، ووضعوها في كتب من أجل المحافظة عليها من الاندثار بصفتها جزءاً من تراث الأمة الأدبي الذي يجب أن يبقى على مر العصور مهما حدث للمجتمع من تغيير وتطور.

---

(1) المصدر نفسه، ص187.

(2) جين بتزنر. الطفل ودراسة الأدب، ترجمة ماهر كامل. القاهرة: مكتبة النهضة المصرية، (د. ت)، ص105.

وقد حافظ هذا النوع من الكتاب على شكل الحكايات كما هي، حيث وضعوها كما سمعوها دون أي تغيير أو تبديل أو تحوير، إيماناً منهم بأنها يجب أن تقدم كما هي عليه.

ومن أشهر من قام بمثل هذا العمل في جمع الحكايات الشعبية «الأخوان غرمْ» "Grimm Brothers" من ألمانيا، وقد عاش هذان الأخوان في النصف الثاني من القرن الثامن عشر والنصف الأول من القرن التاسع عشر، وهما يعقوب (1785 ـ 1863) وفلهلم (1786 ـ 1859)، وقد جمعا العديد من الحكايات الشعبية الألمانية وأخرجاها في كتاب بعنوان «حكايات الأطفال والمنزل»، أو «حكايات الأطفال والبيوت» وصدر الجزء الأول من هذه المجموعة عام 1812، وفي نهاية عام 1814 ظهر الجزء الثاني، ثم تتابع بعد ذلك ظهور طبعات متعددة للمجموعة، ولا تزال تطبع حتى يومنا، وتلاقي الإقبال الشديد من الأطفال والكبار في ألمانيا، وقد ترجمت هذه الحكايات إلى أكثر من سبع عشرة لغة من بينها اللغة العربية.

وما يميز هذه الحكايات أو حكايات الأخوين «غرم» ـ كما هي معروفة بذلك ـ هو تدوينها كما كانت تسرد بواسطة الرواة والعجائز والنساء وغيرهم من أفراد الشعب الألماني، دون أن يضاف إليها ما يشوهها أو يغير من أحداثها، ودون إدخال أي رمز أو حكمة غير مباشرة، حيث كان هدف الأخوين «غرم» هو نقل هذه الحكايات الشعبية التي عاشت عبر العصور المتعاقبة كما هي، وكما أخذاها من أفواه الرواة والعجائز وغيرهم من المصادر التي رجعا إليها في جمعهما لهذه الحكايات. وكان الأخوان «غرم» يريان أن هذه الحكايات تعد تراثاً شعبياً خالداً يجب ألاّ يغير، ويجب أن يقدم للأجيال المتعاقبة في نفس الصورة التي هو عليها[1].

وقد احتوت مجموعة حكايات الأطفال والبيوت على مائتين وعشر حكايات.

أما النوع الثاني من الكتاب والأدباء الذين هاموا حباً بالتراث الشعبي والحكايات الشعبية خاصة، وجعلوها مصدراً مهماً للعديد من القصص والحكايات

---

(1) مفتاح محمد دياب. مقدمة في أدب الأطفال، طرابلس: المنشأة العامة للنشر والتوزيع والإعلام، 1985، ص102.

التي كتبوها وذاعت شهرتها في الآفاق، حيث أخذوا الحكايات وحوروها وبدّلوا في ما رأوه جديراً بأن يبدل أو يغير؛ ليناسب الأطفال، أو ليقدم فكرة جديدة تعبر عن واقع ملموس، أو غير ذلك من الأسباب التي تدفعهم إلى عدم تقديم الحكاية كما هي، أو كما يقدمها الرواة وبأسلوب يختلف عن أسلوب الحكاية التقليدي المتوارث عبر الأجيال والأزمنة التي عاشت خلالها هذه الحكايات.

وأشهر هؤلاء الأعلام على الإطلاق في هذا الفن الكاتب الدانمركي هانز كريستيان أندرسون "Hans C.Andersen" الذي ولد عام 1805 وتوفي عام 1875.

ويعد هانز أندرسون من ألمع رواة كتابة القصص والحكايات الشعبية والخيالية للأطفال، وقد اشتهرت قصصه وحكاياته في كل أنحاء العالم، وترجمت إلى معظم اللغات الحية، وقبل أن يكتب أندرسون القصص للأطفال كتب بعض المسرحيات وبعض الأعمال الأدبية الأخرى، ولكن حكاياته للأطفال هي سبب شهرته الواسعة. في عام 1835 ظهر الجزء الأول من حكايات هانز للأطفال تحت عنوان «أقاصيص وحكايات الجن للأطفال» "Fairy Tales Told for Children" وضم هذا الجزء عدداً من الحكايات والقصص التي أحبها الأطفال ولا يزالون يستمتعون بقراءتها حتى يومنا هذا منها قصة(*) «الأميرة وحبة البازلاء» وحكاية «أزهار الصغيرة أيدا»، وغيرها.

وقد استمد هانز أندرسون أفكار هذه الحكايات وموضوعاتها من حكايات التراث الشعبي، وقصصه التي كانت منتشرة في بلده في ذلك الوقت، واستعمل في كتابتها أسماءً حقيقية وأشياء ملموسة بدلاً من الساحرات والجنيات، كما هو الحال في الأساطير الشعبية وغيرها.

وتحمل قصص وحكايات هانز كريستيان أندرسون ألواناً أدبية مختلفة عبَّر عنها بأسلوب مشوق ممتع، وقد حملت هذه الحكايات الكثير من نظرته للحياة بكل ما فيها من تفاؤل وتشاؤم، وخير وشر، إذ كان في أثناء إعادة كتابة قصة أو حكاية

(*) وهذا النوع من الحكايات، حكايات الجان (Fairy Tales) عادة ما يتناول كائنات فوق الطبيعة تتمتع بقوى سحرية خارقة للمألوف. المحرر.

من التراث الشعبي يضعها في أسلوب جميل متألق سهل، ثم يضيف إليها تفسيره وتأويله لشخصيات وأحداث تلك الحكاية أو القصة الشعبية[1].

وعلى الرغم من أن الهدف الأساسي لسرد الحكاية الشعبية وروايتها للأطفال هو المتعة والتسلية، فإنه يمكن عرض العديد من الأفكار من خلال الحكاية الشعبية، حيث نجد أن الكثير من الحكايات والقصص الشعبية قد تمد المجتمع بلون من التنفيس عن شعور بالظلم أو القسوة من بعض الأفراد أو الطبقات. أو يمكن أن تحمل بين طياتها قيماً اجتماعية وثقافية؛ كالفضيلة والتواضع والحنان ومساعدة الآخرين والصبر والشجاعة . . . وغيرها، وهذه القيم عادة ما يكون نتيجتها النجاح أو الانتصار أو الثواب وغيره من ضروب المكافآت، وكثير من القصص والحكايات الشعبية يحمل بين دفتيه المعاني الجميلة للحياة التي قد تتمثل في الإخلاص والوفاء والرحمة والشفقة. كل هذه الموضوعات والأفكار يمكن التعبير عنها ونقلها إلى الأطفال من خلال سرد الحكاية الشعبية، أو من خلال قراءة الطفل لها في الشكل المكتوب[2].

وكذلك فإن الأسلوب الذي تكتب أو تسرد به الحكاية الشعبية له دور كبير في جذب انتباه الأطفال لها. فعادة ما نجدأن الطفل يسمع بداية الحكاية أو يقرؤها بقول الراوي أو الكاتب: «كان يا ما كان في سالف العصر والأوان» أو قوله: «يحكى أنه في قديم الزمان طفل، . . . » أو قوله: «يحكى أنه كانت هناك فتاة جميلة ولكنها عاشت فقيرة»وغيرها من البدايات المعروفة في القصص والحكايات الشعبية، التي تجعل الأطفال يتشوقون إلى أحداث الحكاية. وما يجب التنبيه عليه هنا أن «لغة الحكاية الشعبية للأطفال يجب أن يكون فيها طعم البلد الذي نشأت فيه، وتوحي بجوها العام، على أن تكون مفهومه لمستمعيها وقرائها»[3].

وقد اهتمت معظم دول العالم بجمع حكاياتها الشعبية وتقديمها في شكل سهل ميسر لأطفالها. فنجد الحكايات والقصص الشعبية تروى للأطفال في رياض

(1) المصدر نفسه، ص99.

(2) المصدر نفسه، ص183.

(3) على الحديدي، ص182.

الأطفال والمدارس، ومكتبات الأطفال العامة، والإذاعة المسموعة والإذاعة المرئية، وعقد الندوات العلمية حول موضوعات الحكاية الشعبية ودورها في تثقيف الأطفال وغيرها من نواحي الاهتمام الأخرى.

وكان هذا العمل ناتجاً عن إيمان هذه البلدان من أن الطفل يجب أن يكون على وعي وبصيرة بتراث أمته الشعبي؛ حتى يكون له زاداً في طريقه ومسيرته لصعود سلم الحضارة التي يهفو أي مجتمع إلى الوصول إليها، وأخذ مكانه المناسب مع المجتمعات الأخرى.

ومقارنة بما يسمعه أو يقرؤه الطفل العربي من حكايات شعبية عربية، وبين ما يسمعه أو يقرؤه أطفال بلدان أخرى أوربية وأمريكية وآسيوية، فإننا نجد أن هناك فارقاً كبيراً، حيث إن الحكايات الشعبية التي تقدم للطفل العربي إما أن تكون قليلة، أو أن أسلوبها عادة ما يكون غير مناسب لسن الطفل المستمع أو القارئ، وأن هذه الحكايات تحفل بموضوعات الجان والعفاريت والقسوة والخوف والفزع، وقتل الناس وعقاب الأطفال، وغير ذلك كقصص الغيلان والمردة والشياطين، وغيرها.

وعلى الرغم من وجود عشرات القصص الشعبية العربية؛ كسيرة عنترة، وسيف بن ذي يزن، وأبي زيد الهلالي، والظاهر بيبرس، وغيرهم من الشخصيات والأبطال التي استقرت في وجدان المجتمع العربي والإسلامي، قديماً وحديثاً، بالإضافة إلى مئات من الحكايات الشعبية المحلية باللهجات العامية، التي تظل تدور في نطاق إقليمي ضيق، يظل الطفل العربي في حاجة إلى إعادة كتابة حكاياتنا الشعبية العربية، وأدبنا وتراثنا غني بها، كذلك إعادة كتابة الحكايات الشعبية المحلية بلغة عربية فصحى ميسرة سهلة؛ حتى تكون في متناول الأطفال العرب أينما كانوا في مناطق الوطن العربي.

وقد تكون الحكاية الشعبية مصدر تثقيف للطفل، وإمداده بكثير من الأشياء التي يحتاج إليها في حياته حاضراً ومستقبلاً؛ ولذلك فقد أصبحت الحكايات الشعبية، إلى جانب كونها وسيلة للتسلية والمتعة وغيرها من الأهداف الأخرى،

obeikandi.com

«وسيلة لإدخال الأطفال في القيم الخاصة بالمجتمع القائم، بعد أن كانت أداة للمبادرة وإيقاظ الحساسية، وقد تصل الحكاية إلى درجة تجعل الطفل يجد فيها تعريفاً بنفسه وبمركزه التاريخي والجغرافي من خلال أحداث الحكاية والأسطورة التاريخية، وتعريفاً بمدن وطنه، كما أنها قد تثير عنده النزعة القومية بعبارات منمقة»[1].

وللحكايات الشعبية بشكل عام، وما هو منها للأطفال بشكل خاص، أهمية أخرى وهي أنها بسبب تنوع أنماطها التي تأتي نتيجة تنوع تجارب الإنسان في الحياة «تشترك جميعاً في كونها تسهم في إعادة النظام والتوازن في حياة الإنسان، وفي أنها ترد على تساؤلات الإنسان إزاء كل ما يحتاج إلى تفسير وفلسفة سواء في عالمه المرئي أو في العالم غير المرئي»[2].

إننا حينما ننظر في ثقافة الأطفال كخطوة أولية هامة في ثقافة المجتمع، بأكمله، وبأن الحكاية الشعبية جزء مهمٌ من أدب الطفولة، فإننا جميعاً، يجب أن نقوم بجمع حكاياتنا الشعبية العربية والمحلية المنتشرة في كل منطقة من مناطق الوطن العربي، خاصة التي تقدم للأطفال بطريقة أو بأخرى، وإمعان النظر في هذه الحكايات وتنقيتها من الرواسب والشوائب التي قد تشوبها، وتعديلها وجعلها مناسبة للطفل العربي في هذا العصر، حتى يظل تراثنا الشعبي «مسايراً لمقتضيات الحياة المتطورة أبداً، ولابد من التسليم بتحفظ واحد هو الحرص على أصالة الحكاية الشعبية، وهي الأصالة التي جعلت من هذا الشكل أثراً يجمع مقتضيات التعبير الأدبي، إلى جانب قيامه بالوظائف الأساسية في التربية الفردية والاجتماعية»[3].

(1) عبد الرزاق جعفر، أدب الأطفال: دراسة، دمشق: اتحاد الكتاب العرب، 1979، ص308.
(2) نبيلة إبراهيم، ص144 ـ 145.
(3) عبد الحميد يونس، ص100.